"التاجر والنقاش" لمحمد البساطي

بقلم شمس الدين موسى

يطالعنا « محمد البساطي » في روايته « التاجر والنقاش » ـ وهي العمل الثالث بعد مجموعتيه القصصيتين « الكبار والصغار » ، و « حديث من الطابق الثالث » ـ بعالم متكامل له رائحته الخاصة ومذاقه المميز الجديد على الرواية المصرية ، فالروائي يغوص في عالم القرية بنسق خاص لا يعتمد على التسلسل الزمني التقليدي الذي يضيف جديدا كلما قطع القارىء جزءا من الرواية . والشخصيات لا تنمو نموا استطراديا ، والاحداث لا تنمو نموا تراكميا ـ بل ان القارىء كلما غاص بداخل ذلك الجو الذي صوّره المؤلف اكتشف ابعادا أخرى ، ومكونات جديدة منذ البداية لكن تفصيلاتها وقسماتها لم تكن واضحة بل انها كانت في حالة اندماج ، وسرعان ما تتضح كلما قطع القارىء أجزاء من الرواية حيث الصورة تكون أكثر وضوحا بداخل مجمل العلاقات التي فصلتها الرواية . ولقد كان المؤلف منذ البداية مصورا يعمل على نقل ذلك الجو من خلال رؤاه الانسانية الشاملة ، الى جانب استخدامه الاسلوب القاص الذي يعتمد على السرد كعنصر أساسي من عناصر الرواية .

ولقد عمل « محمد البساطي » على تشييد بناء روايته الفني على أساس العلاقة بين التاجر والنقاش . فالحوار بينهما كان متصلا منذ سنوات الطفولة ، بالرغم من عدم اتضاح بدء زمن الحوار الا في الجزء المسمى « من أحاديث النقاش فوق الجبل » ـ حيث كان النقاش يصعد الجبل كل ليلة الى صاحبه « التاجر » الذي هجر القرية كي يقيم على سطح الجبل بجوار شجرة الكافور التي غرسها الزناتي بين الصخرتين فوق الجبل . لكن هل حقا كان التاجر هناك أم ان ذلك العالم الذي تصوره المؤلف كان يعيش خلف المحسوسات في منطقة الظلال ، حيث كان يحكيه من خلال الاساطير والحكايات المتواردة على ألسنة الرواة من القرية ـ لان الرواية في مجملها تطل علينا بأحداثها من أعماق ضمير القرية ، فتعيد كتابة ما روته الحكايات عن الجبل والصخرتين . فلقد تواضع الجميع من مختلف الاجيال على أن يحيطوهم بالالغاز والاسرار ، والحكايات الغريبة التي شكلت وجدان أهل القرية فيما عدا من نجح في الانفلات من تلك الحلقة ، والمؤلف كان أحد الذين أفلتوا من الحلقة وعاد اليها بعد سنين ورأى ما رأى من علامات لا زالت تطبع الواقع هناك . فبرغم ان الصخرتين كانتا محورا لكثير من الاحاديث والاسرار التي صنعها الضمير العام في القرية ، الا انهما الآن ـ كما يبين المؤلف ـ يستخدمهما كمكان للراحة والتأمل ، يجلس خلفهما المقرئون يرتلون آيات الذكر الحكيم ، بينما حلقات الذكر الغاصة بالذاكرين قائمة كل ليلة ، والاولاد الصغار يتبارون في تسلق الصخور على حواف الجبل ، بعد أن كان أمثالهم من الاجيال السالفة لا يجرؤون على القرب من سفح الجبل . ويقولون عن الصخرتين ـ فيما يقولون ـ انه اذا ما وقف أحد بينهما فانه يستطيع أن يرى ويكتشف أي شيء في المنطقة بوضوح شديد ، فيرى الفأر قبل أن يختفي في جحره ، كما ان الصخرتين كانتا في يوم ما صخرة واحدة ، وقد اختبأ خلفها في

ليلة أحد قطاع الطرق . وكان الفارس الـــذي يطارده يدور حول الصخرة كي يناله ، غير ان اللص كان هــو الآخر يدور حولها . وعندما يتعبان من المطاردة والاختباء كانا يستريحان كل في جهة ، ثم يدوران مــن جديد ، وعند الفجر كان الفارس قد سئم الامر ، مما جعله يستل سيفه ويهوي به على الصخرة فيشقها نصفين ، وسرعان ما يتسلل بينهما ويقتل اللص .

وكما أحاط الناس في القريـــة الصخرتين بتلك الحكايات الاسطورية ، أحاطوا أيضا النقش الموجود على ساق شجرة الكافور فوق الجبل بنفس الحكايات التـي تناقلوها وحملوها بدلالات عديدة . والنقش عبارة عن وجه انسان محاط بأعداد كبيرة من المثلثات الصغيرة ، ودوائر كالفقاقيع ، وجسد لم يكتمـل ينحني في تحفز وقد مدّ ساقين أماميتين وكأنه يهم بالقفز . ولقد انتشر هذا الرسم في كل مكان من القرية ، فكثيرا ما وضعـه أصحاب البيوت فوق بيوتهم ، كما شغلته أيدي الفتيات الصغيرات على مفارش العروس ، فكان ذلك النقش هو الطوطم الذي استقر في ضمير القرية ــ اختاروه منـذ سنين مجلبة للبركة والسعادة .

والرواية زاخرة بالشخصيات مثـــل « الزناتي » صانـــع الاقفاص ، و « العجوز » صاحبـــة الفرن ، و « صبي النقاش » ــ وأهم هذه الشخصيات جميعـا كان كل من شخصية التاجر وشخصية النقاش .

وبرغم ان التاجر كان موجودا دائما في دكـــانه المطل على الساحة الواسعة التي تفصل بيوت القرية الواطئة عن الجبل الذي يحجز وراءه الصحراء المترامية ، التي ظلت قائمة أمام فلاحي القرية تـــوحي بأشياء غريبة ، فهي مصدر غزوات البدو على القرية منذ سنين طويلة ، حيث كانوا يغيرون عليها كي يسرقوا المواشي والمحاصيل المختلفة ، حتى انهـــم ــ كما تحكي العجائز ــ كانـوا يخطفون الفتيات الحسناوات ، ولم يتركوا ابنة ابراهيم الدغيدي التي خطفـــوها بينما الحنّة في يديها وبين أصابعها . كانوا يغيرون على القرية في الوقت المنـاسب بعد أن يكون الاهالي قد انتهوا من جمـــع المحاصيل ، وما من مرة يأتون الا ويشعلون نارا كبيرة فوق الجبـل يراها كل سكان العزب المجاورة للقرية ــ كما انهم كانوا دائما يقصدون بيتا معينا ، أو دكانا معينا يعرفونه قبل أن يقوموا بالغارة عليه .

التاجر ــ كما يروي المؤلف في القصة ــ يكون دائما موجودا في منطقة الظل على المصطبة أمام دكانه بعيدا عن مستطيل الضوء الذي يصنعه « كلوب » الـــدكان على أرض الساحة . أما النقاش فيكون جالسا بجواره داخل جلبابه الملوث بالالوان المختلفة بينما الحوار بينهما يتصل كصديقين التقيا في نهايـــة النهار أو الليل . يحكي له النقاش عن الخيالات التي صنعهـــا النجار من جذوع الاشجار على هيئة صلبان ، صنعوا لها ملابس بيضاء . أقاموها فوق الجبل في مواجهة الصحراء المترامية ، وكأنها طابور الخفراء الذي ينتصب حارسـا القرية من الغزوات المنتظرة التي لا يعلمون متـى ستهبط عليهم . فهذه الخيالات التي أقاموها كـــانوا يريدون منها أن تحميهم من شر المستخبي في تلك الصحراء خلف الجبل. لكن النقاش يعلن رفضه أوامرهم التي تطلب منه طـلاء الخيالات باللون الابيض ، لانها في رأيـــه ستكون مثل الاشباح . وذلك جعلهم يحضرون نقاشا آخر كي يقـوم بالمهمـــة ، فيرسم للخيالات عيونا وأنفا وفمـــا باللون الاسود . لكن الخفراء ، امعانا في السخرية ، يقومون كل ليلة باحراق أحد هذه الخيالات مـــن أجل التدفئة وسط الليالي الباردة .

التاجر كما صوره « البساطي » دائما في انتظـار شيء ما ، لا يعرفه ولا يستطيع الاعلان عنه لكنه يحسه. دائما يسأل عن زوار السيـدة التي يتقولون عليهـــا ، فالفلاحات يعبن عليها ، لكنهن يحسدنها على حسنها . التاجر يتشمم أخبارها ، وكثيرا ما يداعبها في ذراعهـا أثناء حضورها للتسوق من دكانه . يعرف ان هناك من يزورها ، وهما رجلان من خارج القرية ، فيمكث فـي انتظار مرورهما بالساحة أمام دكانه ــ والمؤلف لا يوضح ماذا يريد التاجر من السيدة ــ ويسأل الرجل الـــذي يقوم بخدمتها عن الزائرين ، هل يركبان خيولا ؟ أيكون طريقهما عبر المدق من الصحراء ؟ ماذا يرتديان ؟

يرتفع المؤلف بذلك الاهتمام الذي يبديه التـاجر نحو المرأة الى مستوى العنـــاء النفسي والفكري لدى التاجر . فكـــانت تلك الاهتمامات بعـــدا جديدا في شخصية التاجر لم يطلع عليه النقاش . كانت شيئـــا أكبر من الحب والارادة ، أو الرغبـــة في المعاشرة أو التملك .... كانت شيئا آخر من الاشياء التي همست بها الرواية . فكلما حاول التاجر لقـــاء الغريبين كـان يفشل ، ففي الوقت المناسب الذي يعلم بوجودهما كان يسعى جاهدا لانجاز ذلك اللقاء ، لكنـه لا يتم ــ فيعود ويعاود سؤاله عنهمـــا وترقبه لهمـا ــ ويعرف انهما يتحدثان عنه ، ويعيبان عليه انه افتتح دكانه بعيدا عن سوق القرية ، كذلك يقولان ان أي بائع من الذين يمرون على العزب يبيع أكثر منه ، وأي واحد يفهم في التجارة لا يفتح دكان قماش في هذه البلدة ، وانه لولا ان أبـاه كان يعمل بتجارة القماش لما أصبح تاجرا ، وفي هـذه الحالة كان سيصبح خادما في مسجد .

تلك الانتقادات جعلت التاجر في النهـــاية يعيد نفس التساؤلات على نفسه مما ضاعف الهم بداخـله ، وزادت معاناته دون أن يحكي لصديقه النقاش عن هذه الهموم . وكان قراره المفاجيء هجرة القرية الى المجهول ،

فلقد مست الكلمات التي أطلقهـا الغرباء عليه الاشياء الغامضة بداخله ، وكان الرحيل . ولم يكـن في وداعه غير صديقه الوحيد « النقاش » الذي فوجيء باستعداده للسفر مع بغلته التي سيتخذها مطيــة في سفره ، وهداياه التي أخذها معه مـن العقود وأدوات الزينة للذين سيذهب اليهم وراء الجبل . وفـي أثناء وداع النقاش له بين الصخور التي تحف جانبي المدق قـال التـاجر :

ـ لو كنت نقلت الدكان الى السوق !

* * *

يظل النقاش بعد ذهاب صديقه التاجر أمينا على ذكراه وصداقته ، فكان يصعد ـ كما يقولون ـ كل يوم الى الجبل كي يقص على التاجر ما يرى ، وما يسمع من أهل القرية . حكى له كما وضحت الرواية ثلاث حكايات.

الاولى ـ حكاية يوسف الاقرع الذي يتزوج في كل بلد زوجة جميلة .

الثانية ـ حكاية والد النقاش الذي كان لا يستطيع التمييز بين الالوان .

الثالثة ـ حكاية العمدة الجديد وهو ابن العمدة القديم مع النقاش .

ذلك العناء الذي كانت تخففه الصحبة بين التاجر والنقاش ، كان التاجر اكثر احساسا به ، فهو اكثر فهما للعلاقات في القرية ، وأكثر خبرة بالناس ، ربما بحكم انه يمارس التجارة ، ولا يبيع قوة عمـله . ولا يصل الاحساس به كاملا الى النقاش الا بعدما اصبح وحيـدا بعد ذهاب صديقه ، وسرعان ما يغرق في نفس المشاعر التي غرق فيها التاجر ولم يفصح عنها . أصبح النقاش لا يقدر على مواصلة حياته في القريـة ، ويتضاعف احساسه بالاغتراب ويكثر صعوده الى الجبل ، ولا يحلو له النوم الا بين الصخرتين المتعانقتين في موضع الاسرار. كان غياب التاجر مفجرا لاحاسيسه الجديدة بالغربـة والوحدة ، واصبح بين سكان القرية وحيدا لا يهتم به أحد . وفي النهاية استقدموا نقاشا من المـدينة حتى يقوم بطلاء واجهة المسجد دون أن يدعوه الى طلائها بينما هو ينام أسفل الصقالة الموضوعة على واجهة المسجـد كل يوم . وكثيرا ما كان يستوقفه أحد المارة كي يسأله : الن ينتهوا من طلاء الجامع ؟ وذلك دون أن يكلفوا أنفسهم بدعوته للمشاركة في العمل .

يظل هكذا ، الى أن يستيقظ في يوم كان فيه ينام أسفل الصقالة ، واذا بنقاش عجوز يقوم بطلاء الواجهة باستخدام الاوراق ذات الثقـوب الزخرفية ، فيطبع اللون على الحائط ، مما يجعله في النهاية يتخـذ قرارا كان سبقه اليه صديقه « التاجر » .

يأخذ النقاش جميع حاجياته « الشال القـديم ، والبقجة ، والجردل ، والكوز الصفيح » ، ويذهب الى أعلى وينام في مكانه المعتاد بين الصخرتين . ولا يستيقظ الا على صوت صديقه التاجر يسأله عـن أهل القرية ، ومتى حضر . ويسأله النقاش عن البدو الذين يعيشون في الصحراء ، ويعرف انهم موجودون تحت خيامهم ، كما انهم يعرفون حكاية الخيالات التي صنعها أهل القرية لهم . كان النقاش يسمع هـذا بينما يداه تحفران بالازميل في جذع شجرة الكافور الوجه الانساني الذي تحيطه المثلثات الصغيرة ، والذي اتخذ منه أهل القرية في الاجيال التالية رمزا يجلب لهم البركة ، ويمنع عنهم الشر المستخبي .

* * *

من خلال تلك العلاقة التي صورها الكاتب بتفاصيلها الدقيقة بين التاجر والنقاش ألقى كثيرا من الضوء على ذلك العالم ، والمعتقدات التي تسود فيه ، وحبه للخير وابتعاده عن الشر ، ونوع الحياة التي يحياها الانسـان بداخلها . والكاتب يقدم قصتـه بأسلوب هادىء ، غني بالمعاني الانسانية ، وكأن صوته قادم من هناك ـ مـن فراغ الصحراء وعبر سنوات طويلة . حكايات قديمـة يقصها المسنون والعجائز في القرية قبل النوم عـلى الاطفال ، تأتي عبر الذاكرة العجوز ، ولا يهتم بحكاياتها غير العجائز ، فتلقي الضوء على ما رسبته الحكايات في النفوس من قيم . مثل حكـاية الشيخة سكينة التي كانت تلبس جسد والـد النقاش ، وكيف كـانت تلك الحكاية الخرافية تجد صدى كبيرا لدى جميع سكـان القرية الذين لم يحترموا والد النقاش في يوم من الايام . ولكن موقف أهل القرية من العالم السفلي ، واحترامهم له ، وتصديقهم لما يحكى من أساطير عـن ذلك العالم ، كل ذلك جعلهم يغيرون طريقة تعاملهم مع والد النقاش، فأظهروا له الكثير من العطف والرعاية ـ برغم ان والد النقاش كان يفتعل ذلك أمام الفلاحين في بعض الاحيان. وفي حالات أخرى كان عليه ان ينفذ أحكام الشيخـة سكينة التي جعلتـه يلف راسه بمنديل بترتر مثـل النسـاء .

يأخذنا « محمد البساطي » الى ذلك العالم عنوة ، حيث نجد انفسنا غارقين بداخله ، فنحـاول بتؤدة واصرار بعثهما الاسلوب الذي استخدمه الكاتب التقاط الجزئيات وتجميعها الى أن تتحد جميع التفاصيل كاملة في النهاية . فيكون قد تحددت أمامنا التضاريس التي شكلت ملامح الجميع . فالجبل علامة هامة في تشكيـل شخصية « الزناتي » الذي لبى النداء وذهب الى أعلى الجبل ولم يعد . كذلك كان واقـع القرية أساسا فـي تشكيل معتقدات السيـدة العجوز صاحبة الفرن التي كانت قعيدة لا تستطيع الحركة ، بينما هي تحافظ على

أضراسها وأسنانها مربوطة الى خيط واحد كمسبحة كاملة ، وتحكي عن اللحظة التي ستواجه فيها الموت باستسلام قدري ، وكان حفظها لاسنانها تطبيقا نفسيا وحسيا للايمان بفكرة البعث والخلود التي ربما استقرت في الوجدان منذ آلاف السنين .

في ذلك الجو الذي نقله المؤلف بتفصيلاته وروائحه الخاصة وصفاته اللصيقة به، يتحرك الاشخاص بالعمل. وربما قابل القارىء أثناء عبوره بين سطور الرواية تساؤل ، أو استفسار بعثه محاولة الفهم والادراك لخصوصيات معينة ، لكن سرعان ما كانت تأتي الاجابة بعد ذلك في جزء تال ، والمؤلف كان يريد ذلك حيث كانت أجزاء الرواية جميعها متوازية في الزمن السردي ، ولم تعتمد على التسلسل الزمني الذي تعتمد عليه الرواية التقليدية . والكاتب قدم الجميع على مسرح قرية معينة ، مصرية ، مثل آلاف القرى المبعثرة على أرض الوادي ، التي يراها راكب السيارة أو القطار أثناء انتقاله بين أرجاء مصر . لكنها قرية خاصة ذات صفات جغرافية مميزة أعطتها سماتها الخاصة ، تحفها الصحراء المترامية . فهي على حافة عالم غريب ظلت تخشاه منذ سنين طويلة ، كانت تخافه بفعل أحداث قديمة استقرت في ضمائر أهلها من الفلاحين ، لكنها كانت مرتبطة بعالم آخر تمثل جزءا منه . كانت تقع على حافة البداوة لكنها تنتمي الى الحضر . كان لذلك الموقع أكبر الاثر في تشكيل الوجدان العام لسكانها وأبنائها . وربما كان المؤلف يريد أن يسقط على هذه القرية المحددة بعض الدلالات العامة التي قد يراها القارىء ، حيث التشابه قائم بين الخطر المتوقع من هجوم منتظر على القرية ، وبعض الاخطار التي يحسها الناس من خلف الصحراء في الواقع الذي تعيشه مصر الآن . وربما يكون اختيار هذه القرية التي تنتمي للمدنية والحضر والزراعة تأكيدا للدلالة السابقة . لكنني أستبعد وصف هذا بالرمزية ، حيث ان الرواية في مجملها تعيش في الماضي والحواديت ذات الدلالة الاسطورية . ومثل هذه الحكايات تجد في كل العصور أصداء معاصرة ربما تتطابق مع أفكارها . كما وان المؤلف لم يبين أية اشارة واحدة تنبىء عن قصده الرمز . بل ان اختياره تحدد وتركه للقارىء الذي ربما يتقول على الرواية ويفسرها تفسيرا معينا أرى ان الكاتب لم يحدده ولم يقصده ولم تبينه مجمل الرواية .

وكان الحلم الذي يداعب أشخاصها ، هو حلم الاكتشاف والتجاوز ، فالانسان الذي قدمه المؤلف كان دائم التطلع الى ذلك العالم الغريب والمجهول ، الذي ينبسط وراء الجبل والصخرتين . فكان ذلك المجهول الذي يخشونه ويخشون ما يخبئه للقرية هو الملاذ المنتظر أو المعادل الموضوعي أمام كل من أضناهم عالمهم حتى أصيبوا بالملل وعدم القدرة على التواصل مع الآخرين . ويظل في النهاية ذلك الخروج والانسلاخ غير المحسوب نتيجته علامة أمامهم حتى يبلغوا عالما جديدا .

ولقد نجح « البساطي » في نقل ذلك الجو الخاص بعبقه وخصوصياته ، من خلال حساسية روائية ، أحسها المتلقي أثناء انتقاله بين أجزاء الرواية التي كادت تكون منفصلة عن بعضها ، نظرا لطبيعتها الخاصة مثل « حكاية صاحبة الفرن » ، التي تصلح أن تكون قصة واحدة منفصلة . لكن كان يجمع كل أجزاء الرواية ارتباط عضوي ودرامي صنعته العلاقة التي قدمها المؤلف بين التاجر والنقاش .

القاهرة